فهو حسن لا ريب فيه. وأما العمل على ترقية مجموع الامة بالعلوم العصرية والصناعات فلم نأخذ عليه فيه الا قوله ان ذلك يجب علينا أولا ورجال الدين يقولون ان تلك العلوم كفر اوطريق للكفر ومجموع الامة تبع لهم . فالذي ينبغي قبل كل شيء اقناع هؤلاء بأن هذه العلوم والفنون تتوقف عليها قوة الامة ومجدها وان القرآن أرشد اليها بما أمر من النظر والتفكر وبمثل قوله « هو الذي خلق لكم في الارض جميعا » وقوله « وسخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعا منه »

كيف يتسنى لنا نشر هذه العلوم قبل هذا وقد سعى بعض عقلاء العلماء بادخال علم الحساب وتقويم البلدان وتاريخ الاسلام في الازهر فاضطربت لذلك الافكار واختلفت الظنون وقال الاغرار (واكثرنا اغرار) ان الازهر قد فسدت بذلك تعاليمه وأصبح الدين على وشك الاضمحلال والزوال . لم يكن للازهر نظام يرجع اليه فبعد ان وضع له النظام وقبل أن يجري فيه أقل انتظام وقعت فيه الحادثة المشهورة التي سببها الحقيقي الخلل وفساد الاخلاق والجهل بأمور الزمان فقال بعض اللابسين لباس العلماء « ان وجود النظام في الازهر هو الذي أجرى عليه أحكام النظام وان الازهر قوامه بالبركة التي جرى عليها أربابه من قبل فكل تغيير فيه لا يكون الا افسادا له »

فلينظر القائلون بأن اعادة مجد الاسلام تكون بنشر الفنون العصرية في الامة الاسلامية الى أوربا التي يرومون أن يقلدوها في نهايتها وهم بدايتهم هل تسنى لها الاخذ بهذه الفنون الا بعد الإصلاح الديني وازالة تلك العقبات التي كانت تعد العلم والصناعات كفرا وتضطهد المشتغلين بهما أشد الاضطهاد ؟ أكرر القول بأن الاصلاح الديني هو المطلوب قبل كل شيء ومع كل شيء ولدينا مقالة في ذلك من قلم أعلم حكماء الامة في هذا العصر ننشرها في العدد الآتي ان شاء الله تعالى (١)

﴿ عالم قريش الامام محمد بن ادريس الشافعي ﴾

« رضي الله تعالى عنه »

نذكر شيئا من سيرة هذا الامام الجليل بمناسبة احتفال العلماء في هذه الايام

والحاجيات بل عينا ان هذا مما يكون للأمة اذا ارتقت في معارج الكمال الاجتماعي فهو غاية لا بداية (١) اعدنا نشر هذه المقالة في ص ٦٦٤ من المجلد التاسع فتطلب منه

بما يسمونه « مولد الامام » وقد احتفلوا قبل ذلك بأيام احتفالا غير هذا يسمونه (الكنسة) وهو اجتماع يكنسون فيه الضريح ويقسمون الكناسة بينهم للتبرك بها والموالد في هذه الديار كثيرة جدا تكاد تستغرق أيام السنة ولذلك كان السيد عبدالله نديم الكاتب المصري يقول : للافرنج في كل عام كرنفال ولنا في كل يوم كرنفال. (* ولا يتولى العلماء بانفسهم الاحتفال في مولد منها الا مولد الامام الشافعي وان كان لا يخلو منهم مولد من الموالد وكأنهم لاحظوا أن هذا المولد الإمام من أعظم أئمة العلم فكان المناسب ان يتولى الاحتفال بمولده العلماء الذين من صنفه بخلاف سائر الموالد فانها للاولياء وشيوخ الطريق والمناسب ان يتولى شأنها أهل الطريق

وقد ذكرنا في مقالات سابقة ما في هذه الموالد من البدع والاضاليل فلا نعيد ذلك بتفصيله ولكننا ننقل من سيرة الامام ما تعلم منه الذين ادعوا الاهتداء بهديه أو حاولوا مرضاته أو مرضاة الله تعالى باحتفالهم بمولده لم يصيبوا الغرض أو نقول كما قال الامام حجة الاسلام الغزالي عند تراجم الائمة المجتهدين « ما تعلم به ان الذين انتحلوا مذاهبهم ظلموهم وانهم من أشد خصمائهم يوم القيامة .. وان ما ذكرناه ليس طعنا فيهم بل هو طعن فيمن أظهر الاقتداء بهم منتحلا مذاهبهم وهو مخالف لهم في أعمالهم وسيرهم » واذا كان هذا قول حجة الاسلام في الفقهاء منذ ثمانية قرون فماذا عسانا نقول الآن ؟ ذكر الغزالي ان كل واحد من الائمة المجتهدين كان عابدا وزاهداً وعالما بعلوم الآخرة وفقيها في مصالح الخلق في الدنيا ومريدا بفقهه وجه الله تعالى قال فهذه خمس خصال اتبعهم فقهاء العصر من جملتها على خصلة واحدة وهي التشمير والمبالغة في تفاريع الفقه لان الخصال الاربع لا تصلح الا للآخرة وهذه الخصلة الواحدة تصلح للدنيا والآخرة ان أريد بها الآخرة قل صلاحها للدنيا فشمروا لها وادعوا بها مشابهة أولئك الائمة وهيهات لاتقاس الملائكة بالحدادين اه

قلت وهذه الخامسة قد فقدت أيضا اذ لا يكاد يوجد اليوم فقيه في مصالح الخلق قادر على الاتيان بتفاريع في الفقه على حسبها . بل يكاد يكون من خواص فقهاء هذا العصر عدم معرفة شيء من أحوال الزمان ومصالح الناس فيه ومن المقرر

(*) الكرنفال عيد يتنكرون فيه بملابس السخرية فيلعبون ويمجنون ولا يعرفون

عند الحنفية حملة المذهب المعمول به في الجملة عند الحكام انه لا يجوز لاحد في مثل هذا العصر أن يستنبط حكما من الاحكام بل ولا ان يصححه ومن أقدم على ذلك لا يقبل استنباطه ولا تصحيحه وشيخ الاسلام في دار الخلافة لا يأذن لمفت أن يفتي من مجلة الاحكام العدلية الموافقة لحالة العصر وان صدر أمر الامام بالعمل بها لان فيها ما هو ضعيف عند الفقهاء الذين يفتي بقولهم بحسب رسم المفتي المتبع عندهم وان كان موافقا لما هو الصحيح عند غير أولئك الفقهاء من أئمة العلم . فماذا يقول الامام الغزالي في هؤلاء الفقهاء وأين هم من تعريف بعض القدماء للفقيه بانه (المقبل على شانه البصير بأحوال زمانه) وقد أطلنا في هذه المقدمة ، فاستمع لما نقصه عليك من الترجمة

كان الامام عليه الرضوان من أعظم أنصار السنة وخذال البدعة والعلماء بدين الله تعالى ، الواقفين على أسرار كتابه العظيم ، وكلام رسوله الكريم ، محافظا أشد المحافظة على حفظ الأوقات أن تضيع في غير ما ينفعه وينفع الناس بعيدا عن اللغو في القول ، بمعزل عن العبث في العمل ، وكان يقسم الليل ثلاثة أثلاث ثلث للعلم وثلث للعبادة وثلث للنوم فثلث العلم للناس وثلث العبادة لآخرته وثلث النوم لنفسه ولكل حق يجب أداؤه وهذه القسمة أفضل من قيام الليل كله لان النوم لابد منه في حفظ الحياة وقد جعل الله الليل سكنا وفي حديث البخاري « قم ونم » وهذا من الجلي الذي لا يحتاج لزيادة البيان وأعظم خدمة خدم بها الشريعة المطهرة وضعه لقواعد أصول الفقه التي هدى بها العلماء الى كيفية استنباط الاحكام من الكتاب والسنة على وجه السداد وسهل على المشتغلين بالفقه الاجتهاد

ومن محافظته على السنة ووقوفه مع نصوصها ما تواتر عنه من انه كان يقول « اذا صح الحديث فهو مذهبي » وانه كان يأمر ان يضرب بكلامه عرض الحائط إذا خالف الحديث وقال في الرسالة (وهي أول ما كتب في علم الأصول) أخبرني أبو حنيفة ابن سماك ابن الفضل الشهابي قال أخبرني ابن أبي ذئب عن المقبري عن أبي شريح الكعبي ان النبي صلى الله عليه وسلم قال عام الفتح « من قتل له قتيل فهو بخير النظرين ان أحب أخذ العقل وان أحب فله القود » قال أبو حنيفة فقلت لابن

أبي ذئب أتأخذ بهذا يا أبا الحارث فضرب صدري وصاح صياحا كثيراً ونال مني وقال أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول أتأخذ به نعم آخذ به وذلك الفرض عليّ وعلى من سمعه وان الله تبارك وتعالى اختار محمداً صلى الله عليه وسلم من الناس فهداهم به وعلى يديه واختار لهم ما اختار له وعلى لسانه ففرض الخلق أن يتبعوه طائعين أو داخرين لا مخرج لمسلم من ذلك . قال وما سكت حتى تمنيت أن يسكت

«كان يعظم النبي (عليه أفضل الصلاة والسلام) عند ذكره بمثل قوله فداه أبي وأمي و بصلوات بليغة لم يلهمها أحد من قبله وقال يصف هداية القرآن في الرسالة بعد جملة طويلة في الصلاة المشار اليها محفوفة ببليغ الثناء

«وأنزل عليه كتابه فقال (وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) فقلهم من الكفر والعمى إلى الضياء والهدى ، و بين فيه ما أحل مكنّا بالتوسعة على خلقه وما حرم لما هو أعلم به من حظهم في الكف منه في الآخرة والأولى ، وابتلى طاعتهم بان تعبدهم بقول وعمل وامساك عن محارم حماهموها ، وأثابهم على طاعته من الخلود في جنته ، والنجاة من نقمته ، ما عظمت به نعمته جل ثناؤه ، وأعلمهم ما أوجب على أهل معصيته ، من خلاف ما أوجب لاهل طاعته ، ووعظهم بالاخبار عمن كان قبلهم ممن كان أكثر منهم أموالا وأولادا ، وأطول أعمارا وأحمد آثارا ، فاستمتعوا بخلاقهم في حياة دنياهم ، فآزفتهم (٥) عند نزول قضائه منايا هم دون آمالهم ، ونزلت بهم عقوبته عند انقضاء آجالهم ، ليعتبروا في أنف الأوان ، (١) ويتفهموا بجلية التبيان ، ويتنبهوا قبل رين الغفلة ، ويعملوا قبل انقطاع المدة ، حين لا يعتب مذنب ولا تؤخذ فدية ، وتجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت سوء تود لو أن بينها و بينه أمدا بعيدا . فكل ما أنزل الله في كتابه جل ثناؤه رحمة وحجة علمه من علمه وجهله من جهله لا يعلم من جهله ولا يجهل من علمه

«والناس في العلم طبقات ، وقعهم من العلم بقدر درجاتهم في العمل به فحق على طلبة العلم بلوغ غاية جهدهم في الاستكثار من علمه ، والصبر على كل عارض دون

(٥) آزافتهم أعجلتهم (١) يعني مستقبل الوقت وما يتجدد منه

طلبه، واخلاص النية لله في استدراك علمه نصا واستنباطا والرغبة إلى الله في العون عليه فانه لا يدرك خيرا إلا بعونه فان من أدرك علم احكام الله في كتابه نصا واستدلالا ووفقه الله للقول والعمل بما علم منه فاز بالفضيلة في دينه ودنياه وانتفت عنه الريب، ونورت في قلبه الحكمة، واستوجب في الدين موضع الامامة، فنسأل الله المبتدي لنا بنعمه قبل استحقاقها، أن يديمها علينا مع تقصيرنا في الاتيان على ما أوجب به من شكره بها، المبلغنا في خير أمة أخرجت للناس وأن يرزقنا فهما في كتابه ثم في سنة نبيه، وقولا وعملا يؤدي به عنا حقه، ويوجب لنا نافلة مزيده،

(لها بقية)

آثار علمية أدبية

﴿ الشعر في شكوى الزمان ﴾

كتب الادب العربية ملأى من شكوى الزمان فما من أديب ولا عالم قال الشعر الا وشكا من سوء حظه وعتب على الزمان وأنحى على الدهر بالذم على رفعه قدر الجهلاء، وغمصه حقوق الفضلاء، منهم المكثر في ذلك كأبي العلاء المعري ومنهم المقل. ومن المتبرمين من كان لهم عند الأمراء والعظماء القدر الرفيع والجاه المنيع لكنهم كانوا يرونه دون ما يستحقون، وقد ذكر حكيم زمانه العلامة ابن خلدون في مقدمته ان رجال العلم والدين قلما تكون عندهم الثروة. وهذه القاعدة قد تغيرت أو هي تتغير تدريجا بأساليب العمران الجديدة المبنية على العلم ورفعة قدر العلماء والأدباء فقد كان فيكتور هيكو شاعر افرنسيس من الحرمة عند قومه مالم يكن للملوك أو الامبراطورين، وليس من غرضنا في هذه النبذة الخوض في هذه المسألة من الجهة العلمية الفلسفية فنتوسع في البيان ونأتي بالشواهد عليه، وانما أوردناه في باب الأدبيات فنأتي عليه ببعض الشواهد الأدبية قال بعضهم

عتبت على الدنيا لرفعة جاهل وخفض لذي علم فقالت خذ العذرا